تقديـــم

سبق لى أن كتبت سلسلة مقالات بعنوان أوراق ثقافية نشرت خلال عامين بمجلة الأهرام الاقتصادى، وجمعت بعد ذلك فى كتاب أصدرته المجلة بعنوان: مصر بين الأزمة والنهضة «يوميات باحث مصرى». كان اهتمامى فى هذا الوقت منصبا على معالجة الشئون المصرية، وكنت أحيانا أتعقب حوادث الحياة اليومية لكى أحللها من وجهة النظر السوسيولوجية وأحيانا بأسلوب ساخرٍ، لأن التحليل السوسيولوجى ان حرم نفسه من الاستعارة ومن السخرية فإنه يفقد كثيرا من حيويته.

غير أن السلسلة الجديدة من «الأوراق الثقافية» التى أقدم لها اليوم تختلف اختلافات ملموسة عن السلسلة السابقة. فقد عنيت بأن أعالج فيها موضوعات فكرية وثقافية، وبعضها يتسم بالجدّة، وخصوصا الأفكار المتعلقة بالكونية بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، وكذلك تلك التى تتعلق بحركة ما بعد الحداثة.

نشر المقال الأول فى السلسلة بتاريخ ٢ أغسطس ١٩٩٣، ومنذ توالى نشر المقالات أسبوعيا بدأ يتشكل لها جمهور متابع متابعة وثيقة. ولم يكن هذا الجمهور سلبيا فى تلقيه، بل إنه فى بعض الأحيان كان يعبر عن رضاه

أو سخطه على المقالات، وخصوصا تلك التى فجرت معارك فكرية مع التيار الأصولى الرجعى، الذى يمثل الوقود الفكرى للإرهاب العشوائى. كما أن أفكار الكونية وما بعد الحداثة أثارت ردود أفعال مختلفة لدى عديد من القراء.

وقد زاد من نطاق ردود الأفعال أن المقالات تنشر فى نفس الوقت فى عدد من الجرائد العربية وهى القبس الكويتية، وأخبار الخليج، والاتحاد، والرأى الأردنية، والسفير اللبنانية. وهكذا تشكل لها جمهور عربى واسع، أسهم فى تعليقه على المقالات.

ومن المعروف أن المقال الصحفى لا يتسع للمناقشة التفصيلية لبعض الأفكار المجردة التى قد ترد فيه. ومن هنا شكوى بعض القراء مما شاب عددا من المقالات من الغموض، وخصوصا تلك التى طرحت أفكارا جديدة لم يسبق التعرض لها أو تناولها من قبل.

ولذلك فكرت حين شرعت فى اعداد هذا الكتاب أن أعيد نشر دراسة أساسية سبق أن نشرتها كمقدمة تحليلية للتقرير الاستراتيجى العربى عام ١٩٩٢ بعنوان «الثورة الكونية وبداية الصراع حول المجتمع العالمى: تحليل ثقافى». وهى تمثل واسطة العقد فى عدد من الدراسات التى نشرتها عن التغيرات العالمية وتتضمن تأصيلا لأفكار الكونية وما بعد الحداثة.

كما أننى آثرت أن أبدأ الكتاب بإعادة نشر مقدمة لسيرتى الذاتية التى نشرت أولا فى مجلة الهلال عدد مارس ١٩٩٤ بشكل مختصر، ثم نشرت كاملة فى مجلة القاهرة فى عدد أبريل ١٩٩٤. وقررت أن نشر هذه السيرة الذاتية الموجزة من شأنه أن يمد جسوراً من الاتصال بين الكاتب وقرائه.

وبعد، لقد حرصت على أن أورد نماذج من التعليقات النقدية على بعض الأوراق الثقافية، وخصوصا ردود الدكتور كمال أبو المجد والشيخ يوسف القرضاوى، نظرا للأهمية الفكرية للحوار الذى أثرته مع ممثلى تيار الإسلام السياسى. كما أننى حرصت فى قسم ثالث وآخير أن أنشر عددا من المقالات الهامة التى كتبت خارج سلسلة أوراق ثقافية.

القاهرة فى أول يناير ١٩٩٥

السيد يسين

مقدمـــة لسيرة ذاتية*

«مهداة إلى ذكرى زوجتى الراحلة ليلى عبد العزيز التى أمدتنى بفيض عطائها فى مرحلة التكوين»

أصارح القارئ منذ البداية بأننى تعودت التمتع بقراءة مقالات التكوين التى تنشرها «الهلال» بانتظام لنخبة من أهل الفكر فى مصر، غير أنه لم يخطر ببالى أننى سأدعى يوما للكتابة فى نفس الباب! وحين تلقيت الدعوة بالكتابة ساءلت نفسى: ترى هل وصلت الى لحظة فى تطور مشروعى الفكرى تسمح لى بأن أستحضر خبرات التكوين المبكرة؟ أم أننى بحكم إيمانى الذى لا يتزعزع بأننى فى مرحلة تكوين مستمرة لا أصلح للتوقف والتأمل فى تجارب الماضى، لأن معنى ذلك أن مشروعى قد توقف!

لأمر ما ظللت أماطل فى الوفاء بوعود الكتابة، بصورة جعلت الاستاذ مصطفى نبيل يكاد ييأس من استجابتى. غير أنه حين كرر الدعوة منذ وقت قريب، وجدت لدى ميلا هذه المرة للاستجابة، وأدركت بعد تأمل أن هذه

* نشر نص مختصر لهذا المقال فى مجلة الهلال فى عدد مارس ١٩٩٤، تحت عنوان «التكوين»، ونشر النص كاملا بعد ذلك فى مجلة القاهرة، عدد أبريل ١٩٩٤.

الاستجابة المتحمسة ترد الى أننى وصلت فى الثالث من سبتمبر الماضى الى سن الستين! ما أسرع ما تمر السنوات! قلت لنفسى: الستين رقم جليل فى عمر الانسان، لأنه عادة ما يصطحب بوقفة تأمل عميقة ينظر فيها الواحد منا لنفسه نظرة مزدوجة: نظرة إلى ما مضى، ونظرة إلى ما سيأتى. ويثور فى العادة على الأقل سؤالان كبيران: ترى هل أنجزت ما كان يمكن أن أنجزه فيما مضى؟ وهل سأنجز ما فاتنى فيما سيأتى، أم أن الطاقة تبددت والهمة ضعفت وما بقى من زمن قد لا يكفى لتحقيق الأحلام الكبار والمشاريع الفكرية العظمى؟

فلنستعرض أولا ما مضى، وقد تعرض مناسبة أخرى للحديث عن مشاريع المستقبل.

ما قبل الجامعة

فى يقينى أن النشأة الأولى للإنسان عادة ما تترك عليه بصمات لا يمكن لمرور الزمن أن يمحوها. البيئة الأسرية والتأثيرات المبكرة التى يتلقاها منها الطفل، والبيئة الطبيعية والاجتماعية التى تحيطه، والأماكن التى يعيش فيها، كل هذه عوامل حاسمة فى التشكيل المبكر للشخصية. ليس معنى ذلك أن هذا التشكيل سيظل ثابتا لا يتغير، بل إنه يمكن ـ من واقع خبرتى الشخصية ـ أن يتغير تغيرات جوهرية فى ظل ظروف معينة.

ولدت فى المكس بالاسكندرية عام ١٩٣٣، داخل قلعة عسكرية، لأن الوالد رحمه الله كان ضابطا بمصلحة السواحل، والتى أدمجت فيما بعد مع سلاح الحدود. قلعة قديمة يحوطها خندق واسع وعميق، نعبر الى بابها عبر كوبرى صغير، ويقف على الباب دائما حراس عسكريون. لا نستطيع

الدخول ليلا إلا إذا نطقنا بكلمة السر. القلعة فيها منزل مدنى واحد يشغله والدى باعتباره أركان حرب مركز تدريب الأساس، والذى كان يتلقف المجندين الجدد ليعطيهم التدريب الأساسى قبل توزيعهم على مختلف أقسام القطر.

المكس قرية صيادين صغيرة، البيئة الطبيعية مزيج من البحر والجبل. انعزالى عن المجتمع المدنى قد يكون أحد الأسباب لدفعى مبكرا الى القراءة. أقول أحد الأسباب لأننى عشت فى أسرة تهتم بالقراءة. الوالد رحمه الله، مع أنه لم يكن مثقفا شاملا بالمعنى المتفق عليه للكلمة، إلا أنه كان مهتما اهتماما شديدا بمتابعة السياسة الخارجية والداخلية. وكان من عاداته أن يستدعى أحد أبنائه لكى يجلس الى جانبه وهو مستلق على كرسى شيزلونج، لكى يقرأ بصوت عال افتتاحية الأهرام. تعلمت من هذه الجلسات أولى الدروس فى السياسة العالمية المضطربة فى هذا الوقت. أنا أتحدث عن الأربعينات حيث كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة، وميزان الحرب يتذبذب بين دول المحور والحلفاء. واذكر أن الوالد كان معجبا بقائد ألمانى هو هندربرج، وكان يجعلنى أقرأ فصولا من سيرته فى كتاب كان يعتز به. كان الأخ الأكبر المرحوم رشاد وهو طالب فى المدرسة الثانوية نابغة فى اللغة الانجليزية، فقد كان يقرض شعرا بليغا بهذه اللغة، كان محل تقدير الأساتذة الانجليز الذين كانوا فى هذه الأيام يقومون بتدريس اللغة الانجليزية. وكان رئيسا لجمعية آداب اللغة الانجليزية. وكان الأخ فؤاد الذى يليه فى الترتيب (نحن ثمانية اخوة خمسة ذكور وثلاث اناث) الذى أصبح بعد ذلك لواء فى القوات المسلحة قارئا وخطيبا فى مظاهرات الطلبة فى

الأربعينات، وأديبا يكتب الخواطر والقصص بأسلوب بالغ الرصانة. وظل محتفظا بمستواه الفكرى واللغوى الرفيع حتى الوقت الراهن.

قرأت بغير خطة واضحة لسنوات ما وقع تحت يدى من كتب كان يقرأها أشقائى.

لأمر ما، ونتيجة لفائض الوقت فى الأجازة الصيفية، وغياب التليفزيون، أحسست بحاجتى الى القراءة المستمرة المنتظمة. ولا أدرى كيف جاءتنى فكرة أن استخرج تصريحا دائما بالاستعارة الخارجية من مكتبة «البلدية» فى محرم بك بالاسكندرية. وترددت على المكتبة التى كانت زاخرة بروائع الكتب العربية والانجليزية. كنت أركب الترام من المكس الى محرم بك، لأستعير ما أشاء من الكتب. اكتشفت من الممارسة أن كثيرا من الكتب تكون اما مستعارة أو فى التجليد. وهكذا كان مشوارى يضيع سدى. واهتديت الى طريقة اكتشفت بعد ذلك حين صرت «باحثا» أنها طريقة علمية. ذلك أننى أجريت ـ من واقع بطاقات الكتب المفهرسة سواء بحسب الأعلام أو الموضوع ـ مسحا ببلوجرافيا كاملا استمر عدة أيام. وانتقيت حوالى ثلاثمئة كتاب قدرت أهمية الاطلاع عليها، ودونت عناوينها فى نوتة صغيرة، وضعت لها عنوانا هو «فى رحاب الفكر» ظللت أحتفظ بها حتى سنين قليلة خلت. وكان يطيب لى أن أطالع فيها لأرى أى كتب قرأت فى سنوات التكوين. كنت دونت الرقم الكودى لكل كتاب، وهذا يسر لى عملية الاستعارة تماما. فقد كنت أتوجه بكل ثقة الى الموظف المسئول، واقدم له عشر استمارات استعارة، وأنا واثق أننى ساجد ثلاثة كتب على الأقل منها، وهى أقصى حد للاستعارة. كنت التهمها فى أيام قليلة وأعود مرة أخرى.

قرأت فى هذه الفترة كل انتاج الفكر المصرى الحديث. قرأت للعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وأحمد أمين والرافعى وسلامة موسى، وشغفت شغفا خاصا بجبران خليل جبران وقرأت كل مؤلفاته شعرا ونثرا بلا استثناء، حتى كتابه الشهير «النبى» الذى لم يكن قد ترجم الى العربية، قرأته فى لغته الانجليزية الأصلية. أثر جبران خليل جبران تأثيرا بالغا على أسلوبى، ما زلت أحسه حتى اليوم فقد كان رائدا فى تخليص النثر العربى من المحسنات اللفظية، بالإضافة الى ابتداعه أسلوبا يتميز بالصفاء اللغوى، والابداع فى الصياغة المنطلقة. وساعدنى على التشبع بأسلوب جبران، أننى اقتنيت من مكتبة «إخوان الصفا وخلان الوفا» بالعطارين لصاحبها الحاج ابراهيم نسخة نادرة من الطبعة الأولى الأصلية لكتاب جبران الشهير «دمعة وابتسامة» مطبوعة فى نيويورك عام ١٩١٤. هذه المكتبة ـ التى ما زلت ازورها حتى الآن فى زياراتى للإسكندرية، وان كان قد تدهور بها الحال ـ صاحبة فضل على فى تكوينى الفكرى. فقد كانت زاخرة بروائع الكتب العربية والانجليزية، وكونت مكتبتى الشعرية الانجليزية من هذه المكتبة الرائعة، وكنت أحصل عليها بأسعار زهيدة بعد «فصال» مع الحاج ابراهيم الذى كان يتقن الانجليزية ويعرف قيمة ما يبيعه. حصلت على الدواوين الأصلية للشعراء ملتون، واللورد تنيسون، واليزابيث باريت برواننج، وزوجها روبرت برواننج، وشكسبير، وشيللى وعشرات غيرهم من كبار الشعراء. قرأت الشعر الانجليزى مبكرا، ربما تحت تأثير شقيقى المرحوم رشاد. وبلغ من ولعى بهذا الشعر، أننى مارست ترجمة عدد من القصائد الانجليزية الى اللغة العربية. لازلت أذكر من بينها قصيدة عنوانها «مارينا» لتنيسون، وفى فترة لاحقة ترجمت قصيدة «الرجال الفارغون» الشهيرة لإليوت. ومازلت أحتفظ

بهذه الترجمات حتى الآن. فى هذه الفترة أهتممت أيضا بالقراءة فى النقد الأدبى، ومازلت أذكر أننى قرأت كتاب كولردج الشهير «سيرة أدبية» عن النقد، ودراسة شيللى بعنوان «دفاع عن الشعر»، وفى فترة لاحقة اهتديت الى مكتبة المركز الثقافى الأمريكى، واستعرت منها كتبا فلسفية شتى، بعد أن انتقلت باهتماماتى من الأدب الى الفلسفة. قرأت كتبا ألفها سانتايانا، وهوايتهد، وجون ديوى. ولا أدعى أننى فهمتها بالكامل، ولكنها جعلتنى أقترب مبكرا من عالم الفلسفة. ومازلت أذكر أننى اقتنيت كتابا للفليسوف هوايتهد من مكتبة الحاج ابراهيم من مطبوعات بنجوين عنوانه «مغامرات فكرية» أثر فى تأثيرا بالغا، ومازلت أحتفظ بهذه النسخة حتى الآن. فى هذه الفترة المبكرة اكتشفت مكتبة علم النفس التكاملى التى كان يشرف عليها أستاذنا الدكتور يوسف مراد، ودخلت الى مجال علم النفس. وقرأت رسالة الدكتور مصطفى سويف، الذى أصبح أستاذى فيما بعد حين انتقلت الى القاهرة، وهى «الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة».

أنا أتحدث عن فترة امتدت من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٢ تاريخ دخولى الجامعة (كلية الحقوق). نقطة التحول البارزة فى حياتى فى هذه الفترة، والتى غيرت تماما من ملامح شخصيتى كانت عام ١٩٥٠. فى هذا العام استطاع أحد زملائى بالمدرسة الثانوية أن يضمنى الى الاخوان المسلمين. وسرعان ما أصبحت أخا نشطا، ولذلك رشحت لكى أكون دارسا فى «مدرسة الدعاة» بشعبة محرم بك والعطارين. كان المشرف على المدرسة شيخا أزهريا ضريرا يعمل مدرسا فى المعهد الدينى بالإسكندرية وهو المرحوم الشيخ مصطفى الشمارقة.

كنا ندرس فى هذه المدرسة القرآن والحديث والفقه والمذاهب السياسية المعاصرة. وطالعنا كتابات أبو الحسن الندوى، والمودودى وطبعا سيد قطب والشيخ محمد الغزالى. قامت صداقة بين الشيخ الشمارقة وبينى أثرت فى حياتى تأثيرا بالغا. كان الشيخ معجبا بطه حسين، ويهفو الى تقليده، وأعنى الجمع بين الدراسة الأزهرية والدراسة الحديثة. فالتحق بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية بقسم اللغة العربية. واختارنى الشيخ مع مجموعة من الأصدقاء من بينهم محمد عصمت عبد اللطيف شقيق زوجة أخى فؤاد، وأصبح الآن استاذا بكلية طب الأزهر، ومحمود الشاذلى، والذى أصبح مهندسا بعد ذلك، عمل فى المحلة الكبرى والسد العالى، ثم هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية، وأصبح من رجال الأعمال، وهو الآن عضو الجمعية الأمريكية لرجال الأعمال المصريين.

(وبالمناسبة زارنى الأسبوع الماضى فى مكتبى بالأهرام، وقدم لى مقالا نشرته فى صفحة مركز الدراسات بالأهرام عن رأيه فى الاصلاح الاقتصادى!) أصبحت قارئا مستديما لشيخى مصطفى الشمارقة. وهكذا أصبحت ـ بدون تخطيط ـ طالبا من منازلهم بقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية، لأننى قرأت معه ودرست كل مقرراته. كانت كلية آداب الإسكندرية فى هذا الوقت زاخرة بمجموعة رائعة من الأساتذة الموهوبين. كان يدرس له الشعر الانجليزى الدكتور مصطفى بدوى الذى هاجر الى أوكسفورد بعد ذلك، وقابلته هناك بعد أكثر من عشرين عاما حين دعيت لإلقاء محاضرة عن التاريخ السياسى المصرى، بدعوة من روجر أوين، وكانت سعادتى غامرة لأنه حضر واستمع للمحاضرة وشارك فى النقاش. كان المقرر السنوى الذى وضعه الدكتور بدوى يتضمن دراسة

لعديد من القصائد الشهيرة للشاعر ت . س . اليوت. وهكذا دخلت مبكرا الى عالم اليوت الرحيب. درست مع شيخى القصائد التالية: الرجال الجوف، وأربعاء الرماد، والأرض الخراب. ودرست معه كتاب الرومانتيكية للدكتور محمد غنيمى هلال ومقررا فى التاريخ الاسلامى للدكتور العبادى، ومقررات أخرى للدكتور الحاجرى. ظللت أقرأ للشيخ الشمارقة أربع سنوات كاملة حتى تخرج وحصل على الليسانس وتخرجت معه من منازلنا! لا أستطيع أن أنسى المناقشات الفلسفية العميقة التى كنت أقضى فيها الساعات مع الشيخ الشمارقة، والتى أسهمت اسهاما كبيرا فى تشكيل تفكيرى.

تخرجت من مدرسة الدعاة خطيبا إسلامية معتمدا، أمارس الخطابة باقتدار فى مساجد الإسكندرية حسبت التكليفات التى تحدد لى من قبل الجماعة. وكان تقليد الجماعة تنمية القدرة على الارتجال المدروس. استطاعت مدرسة الدعاة أن تغيرنى بالكامل، من صبى خجول ومنطو، يقبع بالساعات فى غرفة منفردة لكى يقرأ، الى صبى يتسم بشخصية انبساطية، لديه القدرة على مواجهة الجماهير فى صلاة الجمعة، كل أسبوع، يخطب فيهم ويؤمهم فى الصلاة. أفادنى هذا التدريب المبكر بعد سنوات، حين أصبحت باحثا ألقى البحوث فى المؤتمرات العلمية، أو محاضرا جامعيا فى جامعة القاهرة، والجامعة الأمريكية. لم أكن أجد صعوبة فى القاء الدروس بشكل منهجى شفاهة سواء باللغة العربية أو باللغة الانجليزية. لقد كان ذلك ثمرة التكوين المبكر. فى هذه المرحلة بدأت أولى تجاربى فى كتابة الشعر والقصص القصيرة. وتكونت مجموعة من الأصدقاء، من محبى الأدب، وكانوا يجتمعون فى منزلى فى حى راغب باشا. من بينهم

عصمت عبد اللطيف، ومحمود الشاذلى، وغنيم محمد غنيم، وفتحى هاشم. لم يصمد لتجربة الإبداع إلا غنيم وفتحى هاشم. كان غنيم أكثرنا موهبة، لديه قدرة فذة على كتابة الشعر الحديث، والقصص القصيرة الرائعة. سرعان ما ظهر من هذه الاجتماعات، أن بعضنا لابد أن يتوقف فى وجود هذا المبدع. توقفت عن كتابة الشعر والقصة، وانتقلت الى كتابة الخواطر والتأملات، والمقالات الفلسفية. أثبتت الأيام صدق توقعاتنا بموهبة غنيم، لأنه استطاع أن يحصل على جائزة نادى القصة ثلاث مرات متتالية، وهو القاص الوحيد ـ فيما اعتقد ـ الذى حصل على درع طه حسين حسبما تقضى لوائح النادى. للأسف الشديد، توقف غنيم عن النشر المنتظم بعد أن نشرت له هيئة الكتاب مجموعته القصصية الوحيدة بعنوان «قصص فائزة». لم يستطع هذا الشاب الموهوب (الذى أصبح الآن شيخا مثلى!) التعامل مع البيئة الأدبية فى القاهرة. وكان يعتبر مشواره من الاسكندرية الى القاهرة مشقة عظمى. أما فتحى هاشم فأصبح بعد ذلك محررا فى مجلات دار الهلال. وواصل العطاء الأدبى، ونشرت له رواية وعدد كبير من القصص. ومازال نشطا حتى الآن، وأراه من حين لآخر بحكم استقراره فى القاهرة.

ولابد لى أن أشير الى حدث بالغ الأهمية فى مرحلة ما قبل الجامعة، يتعلق بالتكوين فى جيلنا. كان هناك نظام فى الثانوية العامة، لعقد مسابقات علمية يتقدم لها الطلاب فى تخصصات مختلفة. ومن ينجح يضاف إلى مجموعه النهائى فى درجات الثانوية العامة عشرون درجة، وكانت المسابقات تعقد على مستوى الجمهورية بناء على نظام بالغ الدقة فى اختيار الناجحين، فى ضوء امتحانات تحريرية وشفهية.

اخترت ـ وكنت طالبا بالثانوية العامة بمدرسة رأس التين الثانوية ـ أن أدخل مسابقة اللغة العربية. وكان المقرر الذى سأؤدى فيه امتحانى التحريرى

كما يلى: دراسة ديوان حافظ ابراهيم، ومسرحية مصرع كليو باترا لأحمد شوقى وكتاب «مع المتنبى» لطه حسين.

ولك أن تتأمل ارتفاع مستوى المسابقة، التى تفرض على المتسابق أن يقرأ ويحلل هذه الآثار الأدبية العميقة. لايمكن لى أن أنسى ذكريات هذه المسابقة وتأثيراتها اللاحقة على مسارى الفكرى.

انكببت على الدراسة استعدادا للامتحان التحريرى، مع أن مدرس اللغة العربية تحدانى وأخبرنى أنه من المستحيل أن انجح. كان مدرسا ضعيفا روتينيا، ضاق بى، وبمناقشاتى التى كشفت تدنى مستواه فأراد أن يثبط من همتى. مازلت أذكر دراسة طه حسين الرائعة لشعر المتنبى، وما زال فى ذاكرتى شرحه لقصيدة المتنبى المعروفة والتى تبدأ: ليالى بعد الظاعنين شكول. خضت فى ديوان حافظ ابراهيم، وتعمقت فى دراسة مسرحية مصرع كليو باترا. وأديت الامتحان التحريرى، وفوجئت بعد فترة بإخطار رسمى من وزارة المعارف بأننى نجحت، وتحدد موعد للامتحان الشفهى فى القاهرة. وكان نظام المسابقة يقضى بأن يصرف للطالب الناجح تذكرة سفر بالقطار ذهابا وعودة. ولك أن تتخيل طالبا اسكندرانيا لم يسبق له السفر الى القاهرة، يتوجه الى حيث الامتحان الشفهى، أمام لجنة من كبار أساتذة الأدب. كان رئيس اللجنة ـ ولك أن تتأمل المغزى العميق لذلك ـ الأستاذ محمد احمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وأستاذ الأدب المعروف صاحب كتاب «من الوجهة النفسية فى الأدب ونقده». كنت أستمع لأحاديث الأستاذ خلف الله فى اذاعة القاهرة فى موضوعات فكرية وأدبية شتى، وكان له صوت رخيم، وطريقة تميزه فى الالقاء. ودخلت الامتحان الشفهى وأنا أرتجف. من أنا فى مواجهة هؤلاء العمالقة؟

استقبلنى الأستاذ الكريم بابتسامة أبوية حانية وسألنى: ما هى القطعة الشعرية التى حفظتها من مسرحية مصرع كليو باترا حتى ألقيها أمام اللجنة؟ (وكان هذا أحد مواد الامتحان الشفهى) ذكرت له ما اخترته وطلب منى أن ألقيها وفعلت. ثم شرع فى مناقشتى ومازلت أذكر أنه وجه الى سؤالا: ما هو رأيك فى مسرحية مصرع كيلو باترا؟ وفوجئ الرجل لأننى قلت له: هذه ليست مسرحية، وانما هى مجموعة مونولوجات شعرية متلاصقة. وسألنى على أى أساس بنيت رأيك؟ وأذكر أننى دخلت معه فى مناقشة طويلة حول أصول الكتابة المسرحية، وكيف أن ما كتبه شوقى لا يتطابق معها، وتحذلقت وقلت له، إنها تفتقر الى بنية درامية متماسكة! وأعتقد أن الأستاذ خلف الله أصابته الدهشة من المعلومات التى قدمتها، ومن طريقتى فى التقييم، واذا به يقول لى: قم يابنى بارك الله فيك.

هكذا كان مستوى دراسة اللغة العربية فى هذا الزمان. وهكذا كان يشجع الطلبة على الاستزادة فى التعمق، بعيدا عن المقررات المدرسية الجامدة. لقد فتحت لى المسابقة عالم طه حسين الرحيب، بالإضافة الى أنها أتاحت لى مبكرا الفرصة لتقييم شاعرية حافظ ابراهيم واحمد شوقى. توصلت من خلال استعدادى للمسابقة الى رأى فى شاعرية حافظ ابراهيم لم أحد عنه حتى الآن! ليس هناك مجال للمقارنة بين حافظ وشوقى. الطاقة الشعرية لحافظ محدودة للغاية، ومعجمه اللغوى بالغ الفقر اذا ما قورن بشاعرية شوقى الفياضة وثرائه اللغوى الباذخ. أقول هذا وأجرى على الله، فلست متخصصا فى النقد الادبى، ولكن لى الحق باعتبارى قارئا محترفا وكاتبا هاويا (اذا استعرت عبارة كامل زهيرى الشهيرة) أن أبدى رأيى بكل حرية فيما اقرأه!

لأمر ما منذ سنوات، فاض بى الحنين الى قراءة المتنبى من جديد، وحصلت على الديوان، وأسرعت لكى أعثر على القصيدة التى سبق لطه حسين أن توقف أمامها طويلا، وعدت أترنم بالبيت القديم: ليالى بعد الظاعنين شكول، وأتذكر كيف قادنى طه حسين فى المحيط الزاخر للمتنبى ذات يوم منذ ثلاثين عاما خلت!

مرحلة الجامعة

دخلت كلية الحقوق بالصدفة المحضة! لم أكن فى المرحلة الثانوية طالبا نجيبا! كنت أكره الدراسة ونظام المدرسة الحديدى كراهية عميقة. لم يكن يمتعنى سوى شهور الصيف الممتدة، وقراءاتى التى لا حدود لها. حاول والدى أن يجعلنى أتخصص فى العلوم، لكى أتخرج طبيبا (كانت القدوة العائلية أحد من قاموا بالتدريس لى فى المدرسة الأولية الأستاذ عوض عبد المطلب، الذى تعرف على شقيقى المرحوم رشاد لكى يدرس له اللغة الانجليزية، لكى يستكمل تعليمه. واستطاع فعلا أن يحصل على الثانوية العامة بمجموع كبير ويدخل كلية الطب ويصبح الدكتور عوض) حاولت المقاومة ودخول شعبة الآداب غير أن طلبى رفض من الوالد. تعثرت فى دراسة شعبة العلوم. مالى أنا والكيمياء والطبيعة والرياضة؟ لقد كنت سابحا فى بحار الفلسفة وعلم النفس والشعر والأدب! وهكذا نجحت بمعجزة فى الثانوية العامة، بمجموع ضئيل. لم أجد أمامى سوى كلية الحقوق. غير أننى أحببت دراسة القانون. ويرجع الفضل فى ذلك الى أستاذين كريمين. الأول هو الدكتور حسن كيرة أستاذ القانون المدنى، وأفضل من درس وكتب فى مادة المدخل الى القانون. هذا الأستاذ العظيم كان يمتلك ناصية

اللغة العربية بصورة تدعو الى الاعجاب الشديد. محاضراته التى كان يرتجلها، مازالت ترن فى أذنى حتى اليوم. من ينسى من جيلى محاضراته فى نظرية الحق؟ لقد كان أول من علمنى جدل الأفكار من خلال عرضه الرائع للنظريات المتضاربة. فقد كان يقدم كل نظرية من خلال أقوى حججها، وسرعان ما يوجه اليها النقد فنكتشف معه تهافت هذه الحجج. ثم ينتقل بسلاسة نادرة الى نظرية أخرى، وهكذا حتى يستقر على النظرية الصحيحة. زرت الدكتور حسن كيرة فى الكلية بعد أن تخرجت بعشرين عاما، وقفت على باب مكتبه، وكانت زيارة بغير موعد. فتح لى الباب، وعرفته بنفسى وأننى تلميذه، سألنى عن أحوالى، وعن دراساتى العليا فى القانون، واعتذر لى قائلا:

اننى أعد نفسى للمحاضرة ولا أستطيع البقاء معك أكثر من ذلك. قلت لنفسى: يالله! مازال حسن كيرة بنفس ولائه واحترامه للمحاضرة الجامعية وأصولها، وها هو برغم قدراته الفذة، يعد نفسه قبل دخول المحاضرة! أى جيل عظيم هذا الجيل؟

الاستاذ الثانى الذى أثر على حياتى الفكرية، هو الدكتور حسن صادق المرصفاوى، استاذ القانون الجنائى. كان الدكتور حسن قاضيا، وحصل على الدكتوراه، وآثر أن ينتقل إلى الجامعة مدرسا. استطاع الدكتور المرصفاوى أن يؤسس تقليدين:

الأول تقليد البحث العلمى فى الجامعة الذى يشارك فيه الطلبة والطالبات. اذ أنه أسس جمعية الأبحاث الجنائية، والتى دربت أعضاءها على كتابة البحوث العلمية، وعلى المناظرة، وسمحت لهم من خلال

الزيارات الميدانية للسجون أن يعرفوا مبكرين مشكلة الفجوة بين النص القانونى والواقع. ومازلت أذكر أننى قدمت له بحثا عن «جرائم التزوير» اهتم به وأمر بطبعه وتوزيعه على اعضاء الجمعية، وكان هذا حافزا لى على خوض بحار البحث العلمى فى وقت مبكر.

والتقليد الثانى تقليد إنسانى رفيع، فقد أسس فكرة أن الطالب يمكن أن يكون ـ ببساطة شديدة ـ صديقا للأستاذ! هذه كانت مسألة نادرة فى الخمسينات. كان يدعو بعضنا ممن توثقت علاقته بهم الى منزله، حيث كان يقابلنا ببساطة هو والسيدة الفاضلة حرمه، ويقدم لنا الشاى، ونتناقش مناقشة الأنداد ساعات طويلة. امتدت صداقتى بالدكتور المرصفاوى حتى اليوم، واشتركنا فى أعمال علمية بعد ذلك، حين أصبحت بعد التخرج من كلية الحقوق باحثا بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. ولدخولى المركز القومى للبحوث قصة ترتبط بالدكتور المرصفاوى وعلاقته الفريدة بطلابه.

تخرجت فى كلية الحقوق بتقدير جيد. ومعنى ذلك أننى لن أدخل سلك النيابة، أمل كل حقوقى! ولم يعد أمامى سوى المحاماة. لم أكن أستطيع أن أصبر على مراحل التدرج فى هذه المهنة الشاقة، التمرين لدى محامى سنوات طويلة، ثم الاستقلال وافتتاح مكتب مستقل، بكل ما يتضمنه ذلك من تضحيات، وأنا حائر ماذا أفعل بحياتى بعد أن تخرجت من الجامعة؟ نشر إعلان فى الأهرام عن حاجة المعهد القومى للبحوث الجنائية (هكذا كان الاسم الأول للمركز عام ١٩٥٧) الى باحثين مساعدين من خريجى الحقوق والآداب. تقدمت الى الامتحان التحريرى،

وكان عدد المتقدمين حوالى ثلاثمائة خريج، وكان المطلوب ثلاثة فقط. تمت تصفية هذا العدد الى حوالى ٢٥ خريجا، هم فقط الذى نجحوا، وتقدموا الى الامتحان الشفهى. ونجح سبعة فقط كنت واحدا منهم. وقيل لنا أن الامتحان الأخير هو الامتحان الشخصى الذى سيختار فيه الثلاثة المحظوظين. انتابنى الخوف من عدم اجتياز العقبة الأخيرة، بعد كل الجهد الذى وضعته للاستعداد للامتحان. ذهبت الى أستاذى الدكتور المرصفاوى وقلت له: يشاع بين المتقدمين أن هذا الامتحان الأخير امتحان صورى، وأن الواسطة ستحسم الموقف. وكان قد أخبرنى أن الدكتور أحمد خليفة مدير المعهد كان زميله فى النيابة العامة. قلت له: لم لا تذهب لمقابلة الدكتور خليفة تسأله عن جدية الامتحان، وإذا أجابك أنه ليس هناك أى واسطة، فأنا قادر على أن انجح بمجهودى وقدراتى، أما إذا كانت هناك واسطة، فأنت تعرفنى جيدا، وعليك أن تساعدنى. لم يتردد أستاذى الكريم، واستقل القطار الى القاهرة، وقابل زميله القديم أحمد خليفة، والذى أكد له أن قواعد الاختيار بالغة الدقة والموضوعية، وأنه ليس هناك أى مجال للواسطة. وسأله من هو تلميذك الذى بلغ من اهتمامك به، أن تحضر لمقابلتى من الاسكندرية؟ أخبره باسمى، فراجع درجات الامتحان، وقال له تلميذك لفت نظرى من قبل لأنه حصل على أكبر درجة فى امتحان اللغة الانجليزية كتابة وترجمة، وهذه مسألة ملفتة، لأن الحقوقيون ـ كما هو معروف ـ قد يجيدون الفرنسية، ولكن نادرا ما يمتلكون ناصية اللغة الانجليزية.

ودخلت الامتحان، ونجحت، وكنا ثلاثة: ناهد صالح التى أصبحت الآن مديرة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وسامى عبد المحسن، الذى أصبح الآن أستاذا لعلم الاجتماع بكندا، وأنا الذى أمضيت ثمانية

عشر عاما فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، والذى أتاح لى فرصة نادرة للتكوين فى العلوم الاجتماعية بفضل أستاذى العزيز الدكتور أحمد خليفة. هذا المركز الرائد، تركته عام ١٩٧٥ لكى أصبح مديرا لمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، لأبدأ مرحلة جديدة من مراحل التكوين والانجاز فى ميادين علم السياسة والعلاقات الدولية، والبحوث الاستراتيجية. فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية كان من حظى أن أتتلمذ على يد جيل كامل من الأساتذة الرواد: أحمد خليفة فى فلسفة القانون وعلم الاجتماع القانونى، يوسف مراد ومصطفى سويف فى علم النفس، على عيسى وأحمد أبو زيد وحسن الساعاتى وسيد عويس فى علم الاجتماع والأنتروبولوجيا، وعبد الحميد صبره فى فلسفة العلوم.

تركت المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ولكننى عدت إليه بعد ذلك عضوا بمجلس إدارته، وأستاذا غير متفرغ للأبحاث الاجتماعية. سأظل أدين بالفضل لسنوات التكوين فى هذا المركز، لأنه هو الذى علمنى أن هناك علما اجتماعيا واحداً وتخصصات علمية مختلفة. بعبارة أخرى، لا يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية من منظور تخصصى ضيق أيا كان، وانما لابد لنا أن نبسط من آفاق منهجنا ونستفيد من اسهام كافة التخصصات، وفق قواعد المنهج العلمى المترابط. هكذا تعلمنا فى سنوات التكوين، أن الحقيقة ليست مطلقة، وانما هى نسبية، ليس ذلك فقط، ولكن لكل ظاهرة أكثر من جانب، وتحتاج لفهمها وتحليلها الى النظر خلال أكثر من زاوية.

الحديث عن التكوين، لا يمكن أن يختزل فى بضع صفحات، لأن السنوات الباكرة زاخرة بالمغامرات الفكرية، وبالخبرات الانسانية التى تحتاج الى مساحة أوسع لرصدها وتأملها.

غير أنه لابد لى فى النهاية أن أشير الى أن خبرات التكوين الباكرة أثرت تأثيرا حاسما على حياتى العملية وعلى انجازاتى الفكرية على السواء.

فقد سافرت للدراسة الى باريس، لكى أعد لرسالة الدكتوراه فى القانون. ذهبت وذاكرتى مشحونة بمغامرات توفيق الحكيم ومحمد مندور فى فرنسا. ربما كنت معجبا ـ بشكل لا شعورى ـ بالحكيم الذى سافر لدراسة الحقوق، فتركها وانصرف الى الأدب! وكذلك مندور الذى أمضى تسع سنوات ولم يكمل رسالة الدكتوراه العتيدة، وانما ساح فى عالم الفكر والأدب، عاش وقرأ وتمتع بثمار الفكر الإنسانى الرفيع. وعاد ليجابه موقفا صعبا فى الجامعة، فعليه أن يحصل على الدكتوراه. وتحت الضغط، كتب مندور رسالته فى شهور معدودة والتى أصبحت بعد نشرها كتابه الشهير «فى النقد المنهجى عند العرب». بعد عام من دراسة القانون المدنى الفرنسى كجزء من متطلبات الدراسات العليا، ضقت ذرعا بقواعد المواريث الفرنسية المعقدة، واذا بى أترك دراسة القانون، لكى أتعمق فى دراسة علم الاجتماع! واهتممت على وجه الخصوص بعلم الاجتماع الأدبى الذى كان لا يزال ناشئا فى هذا الوقت (عام ١٩٦٤) وعلم الاجتماع السياسى. وتابعت بدقة معركة النقد القديم ضد النقد الجديد، قاد معسكر القديم ريموند بيكار الأستاذ بالسوربون، وقاد معسكر الجديد الناقد غير الجامعى المتمرد رولاند بارت، الذى أصبح من أشهر نقاد الأدب فى فرنسا بعد ذلك.

قلت لنفسى فلتذهب رسالة الدكتوراه الى الجحيم، لانه من غير المعقول لباحث فى تكوينى، ان يضيع ثلاث سنوات من عمره (هى فترة البعثة) لكى يتعقب احكام محكمة النقض الفرنسية، فى الوقت الذى يجد فيه كنوز المعرفة زاخرة امامه.

كنت فى هذه المرحلة أراسل استاذى الدكتور مصطفى سويف، وشجعنى على ان أكتب سلسلة دراسات عن التحليل الاجتماعى للادب، اعرض فيها للاتجاهات الحديثة التى حدثته عنها. وحين عدت للقاهرة فى اواخر عام ١٩٦٧، قدمنى الدكتور سويف لمجلة «الكاتب» التى نشرت فيها سلسلة دراسات جمعتها بعد ذلك عام ١٩٧٣ لتصبح كتابى «التحليل الاجتماعى للادب» والذى طبعت منه ثلاث طبعات حتى الان آخرها هذا العام. وكان اول كتاب فى الموضوع. وهكذا فالباحث الذى سافر لكتابة رسالة دكتوراه فى القانون، عاد للقاهرة ليكتب عن علم الاجتماع الادبى، وذلك بفضل «التكوين» المبكر، والذى ركز ايضا فى مختلف المراحل على علم النفس. وهو الذى سمح لى ايضا ان اكتب كتابى «الشخصية العربية بين مفهوم الذات وصورة الآخر»، وهذا الكتاب انجزته فى الواقع بعد ان استقلت من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ١٩٧٥ وانتقلت الى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام لكى تبدأ الحلقة الثالثة من حلقات التكوين فى مجال الدراسات والبحوث الاستراتيجية. انصب اهتمامى الاول على دراسة المجتمع الاسرائيلى دراسة علمية. ذلك انه عقب عودتى من البعثة انضممت عام ١٩٦٨ الى مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالاهرام خبيرا بعض الوقت ورئيسا لوحدة البحوث الاجتماعية وذلك بفضل زميلتى السابقة فى كلية الحقوق بجامعة

الاسكندرية الدكتورة عفاف مراد، وكنا قد التقينا فى باريس بعد حوالى عشر سنوات من التخرج. كان الاستاذ حاتم صادق هو مدير المركز الذى ركز تركيزا شديدا فى سنواته الاولى على دراسة اسرائيل والصهيونية. وحين رحب باقتراحى انشاء وحدة لدراسة المجتمع الاسرائيلى كان على ان أكون نفسى فى مجال علم الاجتماع الاسرائيلى. وامضيت فى مكتبة الجامعة الامريكية ثلاثة شهور كاملة قبل ان استطيع الالمام الدقيق بالخريطة المعرفية للموضوع، والقراءة النقدية لابرز انتاج علماء الاجتماع الاسرائيليين وعلى رأسهم صامويل ايزانشتات. وكونت اول فريق من الخبراء المصريين فى الدراسات الاسرائيلية، كان من بينهم د. قدرى حفنى، د. محمد عزت حجازى، د. حسين فهيم.

ولا شك ان تأثير الاستاذ محمد حسنين هيكل على تكوينى فى هذه المرحلة الثالثة كان عميقا. فقد كان هو الذى فتح امامنا آفاق البحوث الاستراتيجية حين قرر تحويل المركز الى مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية. لقد دفعنى هذا التحول الحاسم الى التعمق فى دراسة مناهج ونظريات البحوث الاستراتيجية.

وهكذا دار الزمن دورة كاملة، بدأت بالاهتمام بالادب والفلسفة وعلم النفس، واذا بى فى مرحلة ثانية عبر دراسة القانون انتقل الى مجال علم الاجتماع وأؤلف فى مناهجه كتابى «أسس البحث الاجتماعى» عام ١٩٦٣، واصل اخيرا عبر دروب متعددة الى ميدان الدراسات الاستراتيجية.

لم اكن ابالغ حين ارجعت ـ فى صدر هذا المقال ـ ترددى فى الكتابة الى احساسى اننى فى مرحلة تكوين مستمرة لم تتوقف! يشهد على هذا

اننى فى السنوات الثلاث الاخيرة، رجعت بعمق لقراءة الفلسفة من جديد، حتى يتاح لى ان افهم الجذور الفلسفية لحركة ما بعد الحداثة التى تشغل العقل الغربى فى الوقت الراهن. واذا كان بعض الباحثين يرجعون بذورها الاولى الى الفيلسوف كانط، فهل هناك من سبيل آخر سوى العودة مرة اخرى لقراءة «نقد العقل الخالص»؟ واذا كان الفيلسوف نيتشه هو ـ فى عرف البعض الاخر ـ الاب الروحى لما بعد الحداثة فلا بد من العودة مرة اخرى لقراءة كتاب «هكذا تكلم زرادشت» الذى قرأته بترجمة فليكس فارس منذ اكثر من اربعين عاما، بالاضافة الى كتبه الاخرى، وما كتب عنه بالفرنسية، واحدثه كتاب متمرد لمجموعة من الفلاسفة الفرنسيين الشبان بعنوان: لماذا نحن لسنا نتشويين؟! وصدر عام ١٩٩٣ . وبعد، الذاكرة حافلة بصور الماضى غير ان انشغالات الحاضر وهمومه لا تدع للانسان فسحة من وقت، للاستحضار والرصد والتأمل. ألم اقل لكم ان التكوين عملية مستمرة؟

* * *